العلاقات الثقافية بين القاهرة وتونس
من خلال رسائل الزبيدى صاحب تاج العروس
للأستاذ أبو القاسم محمد كرّو

لعل أكثرنا ما زال يذكر ما أتحفنا به شيخنا البحاثة الجليل سيدى محمد الفاسى فى الدورة الثالثة والخمسين من بحث قيم عن العلاقات العلمية الوطيدة والعميقة بين الشيخ العلامة مرتضى الزبيدى – صاحب تاج العروس – وبين علماء المغرب وخاصة منهم علماء فاس ؛ وبينهم العلامة ابن مالك عبد الواحد بن محمد الفاسى الذى أجازه الزبيدى فكانت إجازته موضوع البحث المذكور .

وقد تبسط شيخنا الفاسى فى ترجمة جده ابن مالك وفى الحديث عن الزبيدى وعلاقاته الواسعة مع علماء المغرب الأقصى ممّا يؤكد أهمية تلك العلاقات التى هى جانب واحد فى جوانب التواصل العلمى بل الوحدة الثقافية واللغوية بين المشرق والمغرب .

الموالى وثيقة أخرى غير تلك الإجازة التى أتحفنا بها الشيخ الفاسى وثيقة من نوع مختلف وتصنيفها مجموع خطى نفيس كان تائهًا ومغمور فى مكتبتى الخاصة . وقد تعاقبت عليه الشواغل الكثيرة والغفلة والنسيان .

يتضمن المجموع مختارات عديدة من الرسائل والإجازات والأشعار اختارها ونسخها بقلمه عالم مغربى مغمور[1] . كان مقيمًا بتونس عام كتابتها ١٢٤٤هـ وهذا المجموع هو أقرب ما يكون إلى تأليف أدبى ، وإن لم يوضح ذلك جامعه .

على أن أهم قسم فى هذا المجموع هو القسم الثانى الذى تضمن عشرات الرسائل الشخصية الخاصة الذى كتبها الزبيدى إلى صديق له بتونس عرف فى عصره بالعلم والصلاح والتقوى وكان مقعدًا ملازما لسقيفة بيته وهو الشيخ أحمد بن عبد الله

ومن حسن الصدف أن اكتشفت فى العام

---

(١) يدعى عبد القادر بن عبد القادر بن الزين المغربى الخالدى الميمونى كان حيا عام ١٢٤٨ هـ

السوسى أحد علماء تونس فى القرن الثانى عشر ومطلع الثالث عشر هجريًا

ومعلوم أن الزبيدى قد توفى بالطاعون عام ١٢٠٥ . أما صاحبه التونسى فكانت وفاته بعد الزبيدى بثلاث سنوات ١٢٠٨ هـ

وأن نفاسة هذه الرسائل تتمثل فى

أولًا : أنها صادرة من الشيخ الزبيدى نفسه إلى واحد من علماء تونس فى أيامه .

ثانيًا . أنها تتناول جوانب عديدة من حياة العصر العلمية والسياسية والاقتصادية كما فهمها وناجى بها الزبيدى خليله وصاحبه التونسى .

ثالثًا : أنها توضح جوانب مختلفة من العلاقات الثقافية بين القاهرة وتونس ، وأيضًا بين المغرب والمشرق ، خلال القرن الثانى عشر ، وذلك بما تتحدث عنه من شئون وشجون تتصل بالأدب والكتب وما كان بين العلماء من تواصل واهتمامات علمية وإنسانية .

رابعًا : أنها توضح ، ولأول مرة ، جوانب طريفة وخاصة جدًا من حياة الزبيدى العائلية والشخصية لم يذكرها - فيما نعلم - أقرب تلاميذه المتصلين به وأكثرهم معرفة بخصوصياته وهو المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتى الذى ، وإن حدثنا عن زوجة الزبيدى الأولى والثانية فإنه أكد أن الزبيدى لم يرزق أولادًا ولكن الزبيدى يتحدث فى رسائله بأن الله قد رزقه ولدًا وأنه سماه « عبد الله » تيمنًا باسم والد صديقه التونسى ، لما كان عليه هذا التونسى من صلاح وتقوى حملت الزبيدى على أن يلتمس منه - فى معظم الرسائل - البركة والدعاء له ولابنه ولزوجته الأولى - أم ولده - وأن يستجيزه أيضًا لنفسه ولابنه

وفى هذا الجانب وحده مايبرهن على طرافة هذه الرسائل وأهميتها التاريخية والأدبية .

وخلافا لما تحدثت عنه المصادر المشرقية ، وخاصة تاريخ الجبرتى ، من تهافت المغاربة - علماء وأمراء وعامة الناس - على الزبيدى طلبًا لبركته والتماسًا لرضاه ودعواته ، حتى زعم الجبرتى بأن الحجاج المغاربة كانوا يعتقدون أن حجهم يظل ناقصًا إذا لم

ـرورو الشيخ الربيدى ليمنحهم رضاه
وبركته .. إخلافًا لهذا الرعم فإن رسائل
لزبيدى تكتشف لنا عن تهافته وخضوعه
بل سد إحاجته أحيانًا من هذا العالم
لتونسى المغربى الدىلم يكن فى عصره من
لعلماء الباررين ، كما لم يترك أثرًا علميًا
احدًا .

كذلك تكشف لنا رسائل الزبيدى عن
موقف مماثل نحو أمراء تونس البابات ،
كيف كان الزبيدى يبعث إليهم – من
لقاء نفسه – الهدايا النفيسة وقصائد
المديح وإجازاته العلمية – فى حين يذكر
هو نفسه مواقف معاكسة نحو أمراء مصر
صدور الخلافة الذين – كما يقول – كان
رفض هداياهم .

مهما يكن من أمر ، فإن عدد هـذه
لرسائل – على اختلاف حجتهما – يتجاوز
لخمسين رسالة ، وهى تقضى زهاء العشر
سنوات الأخيرة من حياة الربيدى ، وهى
ـ اتجاه واحد أى من الزبيدى إلى صديقه
لتونسى إذ يبدو أن صاحبه التونسى لم
يحتفظ لنفسه بنسخة من رسائله للزبيدى .

ونظرًا لوقتنا المحدود ، ولأننى أقوم
حاليًا بتحقيق مفصل لهذه الرسائل تمهيدًا
لطبعها . فإنى أكتفى هنا بتقديم معلومتين
جديدتين مما تضمنته هذه الرسائل كدليل
على أهميتها مع ملحق به صفحة من رسالة
هامة :

المعلومة الأولى تؤكد أن الزبيدى – كما
تحدث فى رسائله أكثر من مرة – قد رزقه
الله ولدًا بعد طول انتظار ويأس ، وأنه
سماه – كما أشرت سابقًا – عبد الله .
وها هو يتحدث عنه فيقول[1] :

« ... وذكرت لكم فى الكتاب الذى
قبل هذا من قبل ولدى عبد الله ، فقد
تزايد لى فى ليلة سبع وعشرين من شهر
رمضان من شهور سنة ١١٩٤ م وسميته
باسم والدكم المرحوم تبركًا به ومحبة إليه
وكنيته أبا الفضل ، أسأل الله العظيم أن
يجعله بارًا بوالديه عالمًا عاملًا محدثًا ،
صوفيًا . ولقد جاءنى بعد أن يئست
وطرق المشيب المفارق ... فأحييت أن

تشرفوه بالإجارة يسمو بها بين الأنام وتنعيمه بحملها يحفظ من صـوارف الأيام . . »[1] .

ولكن هـذا المولود لم يعش طويلًا ففى إحدى رسائله عام ١١٩٦ هـ يخبر بوفاته وبمكان دفنه وحزنه عليه حزنًا شديدًا حتى بنى قبرين حول قبره ، واحدًا له والآخر لزوجته التى توفيت بالفعل عام ١١٩٨ هـ كما سجل ذلك الجبرتى وأكدته لنا رسائل الزبيدى مع تفاصيل أخرى .

والمعلومة الثانية : أن الزبيدى كان يحب الشكلاطة ويبدو أنها لم تكن معروفة فى القاهرة . فكان صديقه التونسى يرسل له منها باستمرار ، ربما كل شهر ، حيث كان تبادل الرسائل بينهما شهريًا وعلى مدى عشر سنوات ففى رسالة متأخرة شكر الزبيدى صاحبه التونسى على مختلف الهدايا وشكره كذلك على الشكلاطة وعلى الآلة الخاصة بصنعها والتى كانت مع الهدايا .

على أن الزبيدى كان يدور يهادى صاحبه بنفائس الشرق وبالكتب التى يطلبها . ويتحدث إليه عن كثير من شجونه وعن أبحاثه العلميه وعن كل قسم أو جزء يكمله من شرحه لكتاب إحياء علوم الدين

رحم الله الجميع وأفادنا بعلمهم وتراثهم .

أبو القاسم محمد كرو

عضو المجمع المراسل من تونس

---

(١) باقى الرسالة فى الملحق .

على حبر سد نفره وعيب الى الحلوات وهو لاخوته لعلم السنة المرجية للشتر
مرا لاعادة مرا لاجتماع صاحبت الى الباب ولا سمعة الخطاب ميا لمشروح من التوجه.
الى الحضرة الى احوال الكتب المخلص بعد فيام عزه واداكه وكيفية تشكره عسران يجتمع
شمله مع اهله الكريم مريتيب عزا ارعز مجتمع الموضوع ج ارا تشتيته ولكل ميعاد وبعد ان
ورد البشير من عمر تيم الحضور والتسهيل ما تمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل
هو وعليه قصد السبيل وذكرت لكم ج ارا الكتاب الذي قبل هذا من فضل ولي عبد الله
محمد بن اسمعيل ج ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان من شهور سنة ١١٩٤ وتميته
ياسمع والبصر الموضوع تبركا به ومحبة اليه وكتبته ابا العضل اسعاد الله الكريم
ان يجعله سببا لرضوانه عاملا عملا خالصا صوابا والفرج آمين يعزان يا سف
وكشف المشيب المعارف والهم التدبير وعلل القبر ياجيب ان تشرحوه بالاجازة
لتيسمو بها بين الانام وتنيته بجملة يجب من صوارف الايام وتاخذوا به
كتب الاجازة ممن اجيتم من علماء البلاد من الصحاري والحاضر والبوادي
كتبي هذا الكتاب الى حضرته نبذة صغيرة كشف جمعة سطرتها لتعلوك على
مشرب الطريقة النقشبندية نفع الله بهم تشرح بحلول الغار عليها
ومسيحة خضرة وطرفية بيضاء بيح الاتصال بكل من العوشين المسلمين
بمطاوعة ذراعي وتسبيح الثمانية ولا تواخذوني بغلة قرادي ما يجب.
والكتب دا يجاج مقام الاد لا بين الاستدلال والتذلل نفعكم يختار بيه العالم النحرير
وتسيمو الثقة من مقاكم الاعلام تهم نفحة من رياضه تذكر الانعام بمذاكر الكرام
على حرير الايام والتتمة بجب الاذكار العلام وصلى الله على سيدنا محمد نبي الاسلام
وما لمرجعه ما صدر حلام وكمل رقيام تحريرا ج ليلة الاثنين ٢٠ ربيع الاخر
سنة ١١٩٥.